



وَالْأَرْضِ ﴿ هَذَا هُوَ الْمَقْسَمُ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ﴿وَمَا يَنْهَى﴾ أي من المخلوقات ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ أي هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالاتها عليه . وقال : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ ﴿[الرحمن: 17] يعني في الشتاء والصيف للشمس والقمر . يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب ، فالكواكب السيارة والثابتة يثقب ضوءها جرم السماء الشفاف ، فتضيء لأهل الأرض .

﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ﴾ ﴿وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ﴾ ﴿الْأَعْلَى وَيُقَدَّرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ فَتَلْبَعُهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ ﴿١٠﴾

فقوله جل وعلا ههنا ﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره وحفظناه حفظاً ﴿مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ يعني المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أناه شهاب ثاقب فأحرقه ، ولهذا قال تعالى : ﴿لَّا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ﴾ ﴿الْأَعْلَى﴾ أي لثلا يصلوا إلى الملاء الأعلى ، وهي السماوات ومن فيها من الملائكة إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقدره ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَيُقَدَّرُونَ﴾ أي يرمون ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿دُحُورًا﴾ أي رجماً يدحرون به ويزجرون ويمنعون من الوصول إلى ذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجه مستمر وقوله تبارك وتعالى : ﴿إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ﴾ أي إلا من اختطف من الشياطين الخطفة ، وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقبها إلى الذي تحته ، ويلقبها الآخر إلى الذي تحته ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه ، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن ﴿فَتَلْبَعُهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي مستنير .

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهَمْ أَسَدٌ خَلَقْنَا أَمْ مِّنْ خَلْقِنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ ﴿١١﴾

يقول تعالى : فسل هؤلاء المنكرين للبعث : أيما أشد خلقاً هم أم السماوات والأرض وما بينهما من الملائكة والمخلوقات العظيمة ؟ ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: 57] وقوله : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ هو الجيد الذي يلتزق ببعضه ببعض .

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤَيَّدٌ﴾ ﴿أَوْ آدَاءٌ مِنَّا وَكُنَّا نُرَآهَا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبُوءُونَ﴾ ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب ، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها ، وهم بخلاف أمرك من

شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أي دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يستهزئون ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين ﴿إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي فإنا هو أمر واحد من الله عز وجل يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض فإذا هم قيام بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم حيث لا ينفعهم الندم ﴿وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ فتقول لهم الملائكة والمؤمنون ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ وهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ، ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَأَشْبَاهَهُمْ وَأَمْثَالَهُمْ، فَيَجِيءُ أَصْحَابُ الزَّانَا مَعَ أَصْحَابِ الزَّانَا، وَأَصْحَابُ الرِّبَا مَعَ أَصْحَابِ الرِّبَا، وَأَصْحَابُ الْخَمْرِ مَعَ أَصْحَابِ الْخَمْرِ، وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي من الأصنام والأنداد وتحشر معهم في أماكنهم وقوله تعالى: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي أرشدوهم إلى طريق جهنم. وقوله تعالى: ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ أي قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا. روى ابن أبي حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى شَيْءٍ كَانَ مَوْقُوفًا مَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَغَادِرُهُ وَلَا يَفَارِقُهُ، وَإِنْ دَعَا رَجُلٌ رَجُلًا» ثم قرأ ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ ورواه الترمذي. ثم يقال لهم على سبيل التقرير والتوبيخ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ﴾ أي كما زعمتم أنكم جميع منتصر ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي متقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحددونه عنه.

﴿وَأَنْبَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿فَالْوَالِ بِل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٨﴾

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة كما يتخاصمون في دركات النار ﴿فَيَقُولُ

الضَعَفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنَوْنَ عَنَّْا ضَعِيفًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ [غافر: 47، 48] وهكذا قال لهم ههنا ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ عن ابن عباس يقولون: كنتم تقهرونا بالقدره منكم علينا، لأننا كنا أذلاء، وكنتم أعزاء، أو كنتم تأتوننا من قبل الحق، وتزبنون لنا الباطل، وتصدوننا عن الحق، وتأتوننا من حيث نامنكم. وقوله تعالى: ﴿بَلْ لَرَّ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تقول القادة من الجن والإنس للاتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِيْنَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْل رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰيِقُونَ ﴿٣١﴾ فَآغَوَيْنَاكُم بِمَا كُنَّا غَوِيْنَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَئِنَّا لَشَاعِرٍ يُخَوِّنُ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِيْنَ﴾ أي بل كان فيكم طغيان، ومجاوزة للحق، فلهذا استجبتم لنا، وتركتم الحق الذي جاءكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به فخالفتموهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْل رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰيِقُونَ ﴿٣١﴾ فَآغَوَيْنَاكُم بِمَا كُنَّا غَوِيْنَ ﴿٣٢﴾﴾ يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله أنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة ﴿فَآغَوَيْنَاكُم﴾ أي دعوناكم إلى الضلالة ﴿إِنَّا كُنَّا غَوِيْنَ﴾ أي فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا. قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي الجميع في النار كل بحسبه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي في الدار الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَئِنَّا لَشَاعِرٍ يُخَوِّنُ ﴿٣٦﴾﴾ أي أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ. قال الله تعالى تكذبا لهم وردا عليهم ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ يعني رسول الله ﷺ، جاء بالحق في جميع شرعة الله تعالى له من الأخبار والطلب ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة والمناهج السديدة، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره كما أخبروا ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [نصلت: 43].

﴿إِنَّكُمْ لَذَٰيِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَرَكَةٌ وَهُمْ مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَصَصَاءَ لَدُنَّ لِلشَّرِيبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾ أي استثنى من ذلك عباده المخلصين كما قال تعالى: ﴿وَالْمَصْرِيَّةُ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٤٠﴾ [المصر: 1-3] ولهذا قال جل جلاله ههنا ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي لا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلى ما يشاء الله من التضعيف. وقوله جل وعلا ﴿أُولَئِكَ هُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ يعني الجنة، ثم فسره بقوله: ﴿فَوَرَكَةٌ﴾ أي متنوعة ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ أي يخدمون ويرفهون وينعمون ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَعَبِدِينَ ﴿أَي لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى قَفَا بَعْضٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ بَيِّنَةٌ لِّلَّذِينَ لَشَرِبِينَ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ﴾ يَأْكُوبُ وَأَبَاقُ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ [الواقعة: 17-19] نزه الله سبحانه وتعالى خمر الجنة عن الآفات التي في خمر الدنيا من صداع الرأس ووجع البطن، وهو الغول، وذهابها بالعقل جملة فقال تعالى ههنا ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ أي أي بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها. وقوله: ﴿لَّذِينَ لَشَرِبِينَ﴾ أي طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعني لا يؤثر فيهم غولاً، وهو وجع البطن. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ﴾ لا تذهب عقولهم. عن ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر والصداع، والقيء، والبول، فذكر الله تعالى خمر الجنة فزهاها عن هذه الخصال.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيَضٌ مَّكُونٌ ﴿٤١﴾

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن. وقوله تبارك وتعالى: ﴿عَيْنٌ﴾ أي حسان الأعين، وقيل: ضخام الأعين، وهو يرجع إلى الأول، وهي النجلاء العبناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة كقول «زليخا» في يوسف ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: 32] أي هو مع هذا الجمال عفيف تقي نقي، وهكذا الحور العين ﴿خَيْرَتُ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: 70] ولهذا قال عز وجل: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ﴾ وقوله جل جلاله ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيَضٌ مَّكُونٌ﴾ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان، أو كأنهن اللؤلؤ المكنون، أي هو محصول لم تسمه الأيدي. روى ابن أبي حاتم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على الله عز وجل ولا فخر، يطوف علي ألف خادم كأنهم البيض المكنون، أو اللؤلؤ المكنون».

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٤٢﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ

الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعَظَلْنَا أَوَدَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأُطْلِعَ قَرَاءَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمَبِيتٍ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْنَتَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْقَوُزِ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾ لِيُثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴿

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أي عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها، وذلك من حديثهم على شراهم واجتماعهم في تنادهم ومعاشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مأكّل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٢﴾﴾ يعني شيطاناً، أو هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا. ولهذا ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ يَقُولُ أَتَيْتُكَ لِيَنَّ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي أنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء، يعني يقول على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد والكفر والعناد ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعَظَلْنَا أَوَدَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ لمحاسبون، أو لمجزيون بأعمالنا؟ قال الله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي مشرفون، يقوله المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ﴿فَأُطْلِعَ قَرَاءَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ في وسط الجحيم ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ يقول المؤمن مخاطباً الكافر: والله إن كدت لتهلكني لو أطعته ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي ولولا فضل الله عليّ لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك في العذاب، ولكنه تفضل عليّ ورحمني، وهداني للإيمان، وأرشدني إلى توحيده ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوَلَاءَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الاعراف: 43] وقوله تعالى: ﴿أَمَّا نَحْنُ بِمَبِيتٍ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْنَتَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ هذا من كلام المؤمن مغتبطاً نفسه بما أعطاه الله تعالى من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة، بلا موت فيها ولا عذاب، ولهذا قال جل جلاله ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْقَوُزِ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾﴾ وقوله: ﴿لِيُثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة، وقال ابن جرير: من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة. وما ذكره هنا من قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل تدخل في عموم هذه الآية الكريمة.

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾

يقول الله تبارك وتعالى: أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة، وما فيها من مأكّل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ أي التي في جهنم، قال بعضهم: إنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم، أو هو جنس شجر يقال له: الزقوم ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً

لِظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم فافتن بها أهل الضلالة، وقالوا: صاحبكم ينشكم أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فأنزل الله ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٤﴾ غذيت من النار، ومنها خلقت. قال أبو جهل لعنه الله: إنما الزقوم الثمر والزبد، أنزقمه.

﴿طَلَعَهَا كَأَنَّه رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿١٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَكَيْلُ الْحَجِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ أَلفُوا ءَابَاءَهُمْ صَالِينَ ﴿١٩﴾ فَهُمْ عَلَى ءَاتِرِهِمْ يَهْرَعُونَ ﴿٢٠﴾

﴿طَلَعَهَا كَأَنَّه رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿١٥﴾ هذا تبشيع لها وتكريه لذكرها، فإنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ذلك تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح، والطبع، فإنهم ليضطروا إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما هو في معناها، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾ ﴿١٦﴾ لَا يَسْنُو وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿١٧﴾ [الغاشية: 6، 7] روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال: «اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟» ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ﴾ ﴿١٧﴾ يعني شرب الحميم على الزقوم، أو مزجا من حميم. ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَكَيْلُ الْحَجِيمِ﴾ ﴿١٨﴾ أي ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حِمِيمٍ ءَانٍ﴾ ﴿١٩﴾ [الرحمن: 44] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلفُوا ءَابَاءَهُمْ صَالِينَ﴾ ﴿١٩﴾ أي إنما جازيناهم بذلك، لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان. ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَى ءَاتِرِهِمْ يَهْرَعُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ قال مجاهد: شبيهة بالهرولة، وقال سعيد بن جبير: يسفهون.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٢٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم، فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم، ولهذا ﴿فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ وَنَحْنُ وَأَهْلُهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ

هُرُّ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك، واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعا ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله تعالى لغضبه عليهم، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ أي له ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٦﴾ وهو التكذيب والأذى ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ أي يذكر بخير، قال مجاهد: يعني لسان صدق للأنبيا كلهم، أو أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين وقوله تعالى: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٩﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل، والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى نجعل له لسان صدق يذكر بعده بحسب مرتبته في ذلك ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨١﴾ أي المصدقين الموحدين الموقنين ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ أي أهلكناهم فلم تبق منهم عين تطرف، ولا ذكر ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعِيهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَبِكُلِّ عَالِمَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعِيهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٨٣﴾ يقول: من أهل دينه، أو على منهاجه وسنته ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ﴿٨٤﴾ يعني شهادة أن لا إله إلا الله وسئل محمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم أن الله -حق-، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، أو سليم من الشرك، أو لا يكون لعانا. ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ولهذا قال عز وجل: ﴿أَفَبِكُلِّ عَالِمَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه وقد عبدتم معه غيره؟

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَأَى إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا نَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِفُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ صُرُبًا يَالَمِينَ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ تَعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

إنما نال إبراهيم عليه السلام لقومه ذلك ليقم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجهم

إلى عيد لهم فأحب أن يختلي بالكهتهم ليكسرهما، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدون ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ قال قتادة: والعرب تقول عن تفكر: نظر في النجوم، يعني قتادة: أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يليهم به فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي ضعيف. وفي الحديث «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: 63] وقوله في سارة هي أختي» مخرج في الصحاح والسنن، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، حاشا وكلا، ولما، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعارض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في الحديث «إن في المعارض لمدوحة عن الكذب» ﴿فَرَاغَ إِلَهُ إِلَهُهُمْ﴾ أي ذهب إليها بعدما خرجوا في سرعة واختفاء ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتبرك لهم فيه، فلما نظر إبراهيم إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَطْعَمُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ وقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ مال عليهم ضرباً باليمين، ولهذا تركهم جزاً إذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون. ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُوقُونَ﴾ أي يسرعون. فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبيهم فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أي تعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ يحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية أي خلقكم وعملكم، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي، تقديره والله خلقكم والذي تعملونه، والأول أظهر، وفي الحديث مرفوعاً «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعه» فلما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر فقالوا ﴿ابْنُوا لَنَا بُيُوتًا فَالْقَوْهُ فِي الْجَبْرِ﴾ ونجاه الله من النار، وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها ولهذا قال تعالى: ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿٩٩﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: إنه بعدما نصره الله على قومه، وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة هاجر من بين أظهرهم وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ يعني أولاداً مطيعين، يكونون عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم، قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ ﴿١٠١﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين. وذهب جماعة إلى أن الذبيح إسحاق، وما أظن ذلك تلقي إلا عن أخبار أهل الكتاب من غير حجة، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بغلام حلیم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ يَبْنَئًا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٠٢﴾ [الصافات: 112].

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قَالَ يَتَّبِعُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٣﴾

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى﴾ أي كبر وترعرع، وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه ﴿فَكَالَ يَبْنَىٰ إِيَّيَ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحى، ثم تلا هذه الآية ﴿فَكَالَ يَبْنَىٰ إِيَّيَ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ...﴾ ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي سأصبر وأحسب ذلك عند الله عز وجل، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِذْ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 54].

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّمَ لِلْجَبِينِ﴾ ﴿١١٣﴾ وَتَدَبُّتَهُ أَنْ يَتَابَرَهِيْمُ ﴿١١٤﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١١٦﴾ وَتَدَبُّتَهُ بِذَبِجٍ عَظِيمٍ ﴿١١٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١١٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١٢٣﴾

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّمَ لِلْجَبِينِ﴾ ﴿١١٣﴾ أي فلما تشهدا وذكر الله تعالى إبراهيم على الذبح والولد شهادة الموت. وقيل: استسلما وانقادا إبراهيم امثال أمر الله تعالى، وإسماعيل طاعة لله ولأبيه ﴿وَتَلَّمَ لِلْجَبِينِ﴾ أكله على وجهه. روى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: لما أمر إبراهيم بالمناسك عرض له الشيطان عند السعي، فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب جبريل به إلى حجرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الحجرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ثم تله للجبين، وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لي ثوب تكفني فيه غيره فاخلعه حتى تكفني فيه فعالجه ليخلعه فنودي من خلفه ﴿أَنْ يَتَابَرَهِيْمُ﴾ ﴿١١٤﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا ﴿١١٥﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكش أبيض أقرن أعين ﴿وَتَدَبُّتَهُ بِذَبِجٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١١٧﴾ وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١١٩﴾ أي هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، وقد استدلل بهذه الآية على صحة النسخ، فقد شرع الله لإبراهيم ذبح ولده ثم نسخه عنه، وصرفه إلى الفداء ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١١٦﴾ أي الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى، متقاداً لطاعته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: 37] وقوله: ﴿وَتَدَبُّتَهُ بِذَبِجٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١١٧﴾ عن ابن عباس كان أفتى الذي جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه فأمره بمائة من الإبل، ثم قال بعد ذلك: لو كنت أفتيته بكش لأجزأه أن يذبح كبشاً، فإن الله تعالى قال: ﴿وَتَدَبُّتَهُ بِذَبِجٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١١٧﴾ وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح، وهو إسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة أي منه نبي صالح. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ ﴿١٢٣﴾.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ﴿١٢٤﴾ وَخَيَّرْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿١٢٥﴾

وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة من قتل الأبناء، واستحياء النساء، واستعمالهم في أحسن الأشياء، ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم فغلبوهم، وأخذوا أرضهم وأموالهم، وما كانوا جمعه طول حياتهم. ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين، وهو التوراة ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ أي في الأقوال والأفعال.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جيلاً، وثناء حسناً، ثم فسر بقوله: ﴿سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَلِإِنِ إِلَاسَ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْلِيسَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

عن ابن مسعود قال: إلياس هو إدريس. وقال وهب بن منبه: هو إلياس بن نسي، بعثه الله في بني إسرائيل بعد حزقيل عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له: بعل، فدعاهم إلى الله تعالى، ونهاهم عن عبادة ما سواه، وكان قد آمن به ملكهم، ثم ارتد واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد، فدعا الله عليهم فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوهم أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه الإيمان به إن هم أصابهم المطر، فدعا الله تعالى لهم فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ أي ألا تخافون الله عز وجل في عبادتكم غيره ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ بعلًا يعني رباً، أو كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل، أو بعل اسم صنم كان يعبد أهل مدينة، يقال لها: بعلبك غربي دمشق، وقوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي أنعبدون صنماً؟ ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له. قال الله تعالى: ﴿كَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي للعذاب يوم الحساب ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي الموحدين منهم، وهذا

استثناء منقطع من مثبت. وقوله تعالى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١٢٩) أي ثناء جميلاً ﴿سَلَّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (١٣٠) كما يقال في إسماعيل: إسماعيل، وهي لغة بني أسد. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣١) إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٢).

﴿وَإِنْ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٣) إِذْ جَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ﴾ (١٣٥) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ (١٣٦) وَإِنَّا لَنُفَرِّقُهُمْ مُصِيبًا وَبِأَلِيلٍ أَفْلًا تَعْقِلُونَ﴾ (١٣٨)

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه بعثه إلى قومه فكذبوه فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكتهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم، يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنُفَرِّقُهُمْ مُصِيبًا وَبِأَلِيلٍ أَفْلًا تَعْقِلُونَ﴾ (١٣٨) أي أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم، ﴿وَالْكَافِرِينَ أَتْمَلَّهٖ﴾ [محمد: 10].

﴿وَإِنْ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) إِذْ أَتَىٰ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ (١٤١) فَالْتَمَسَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤٤) ﴿فَبَدَّلْنَاهُ بِالْعُرَّةِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (١٤٥) وَأَلْبَسْنَاهُ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٤٧) فَتَأَمَّنُوا فَمَزَّجْنَاهُمُ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (١٤٨)

في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أمه، وفي رواية إلى أبيه ﴿إِذْ أَتَىٰ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (١٤٠) هو الموقر المملوء بالأمعة ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي قارع ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي المغلوبين. وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب، وأشرقوا على الغرق فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقي في البحر لتخف بهم السفينة، فوقع القرعة على نبي الله يونس عليه السلام ثلاث مرات، وهم يضمنون به أن يلقي من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه، وهم يأبون عليه ذلك، وأمر الله حوثاً أن يشق البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام، فلا بهشم له لحماً، ولا يكسر له عظماً، فجاء ذلك الحوت، وألقى يونس عليه السلام نفسه فالتقمه الحوت، ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤٤) قال تعالى: ﴿فَتَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨) [الأنبياء: 87، 88] ﴿فَبَدَّلْنَاهُ﴾ أي ألقيناه ﴿بِالْعُرَّةِ﴾ في الأرض التي ليس فيها نبات ولا بناء ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي ضعيف البدن ﴿وَأَلْبَسْنَاهُ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ (١٤٦) من القرع، وذكر بعضهم في القرع فوائد: منها سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقرها الذباب وجودة تغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء، ويتبعه من حواشي الصفحة. وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ

يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ قيل: إنما كانت رسالة يونس بعدما نبذ الحوت، وقيل: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت، ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به، وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون. وقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفاً، وقيل: أكثر. ﴿فَأَمَّا أَتَى فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ ﴿فَتَنَزَّلَ فِي حُوتٍ﴾ أي إلى وقت آجالهم، كقوله جلت عظمتهم ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَمَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿١٤٨﴾ [يونس: 98].

﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ ﴿١٤٩﴾ أم خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾

يقول تعالى منكرًا على هؤلاء المشركين في جعلهم لله تعالى البنات سبحانه ولهم ما يشتهون، أي من الذكور، أي يودون لأنفسهم الجيد ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿٥٨﴾ [النحل: 58] أي يسوؤه ذلك. ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول عز وجل: فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ﴾ أي سلهم على سبيل الإنكار عليهم ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ كقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ لَكُمُ الْبَنَاتِ﴾ ﴿١١﴾ تِلْكَ إِذًا فِتْنَةٌ صَبْرًا ﴿٢٢﴾ [النجم: 21، 22] وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ ﴿١٥٠﴾ أي كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم كقوله جل وعلا: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ ﴿٩﴾ [الزخرف: 19] أي يسألون عن ذلك يوم القيامة. وقوله جلت عظمتهم ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿١٥١﴾ أي من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾ أي صدر منه الولد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فذكر الله عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فجعلوهم بنات الله، وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله. تعالى الله وتقدس، وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم. ثم قال تعالى منكرًا عليهم ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ ﴿١٥٣﴾ أي أي شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ﴿١٥٤﴾ أي أما لكم عقول تدبرون بها ما تقولون ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٥٥﴾ أم لكم سلطانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ أي حجة على ما تقولونه.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ يَوْمَ الْبَيْعَةِ﴾ ﴿١٥٧﴾ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٨﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٩﴾ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٦٠﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦١﴾

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ يَوْمَ الْبَيْعَةِ﴾ ﴿١٥٧﴾ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٨﴾ أي هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب منزل من السماء

عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يجوز العقل بالكلية. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا﴾ قال المشركون: الملائكة بنات الله، فقال أبو بكر رضي الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن. ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ﴾ أي الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَخُصْرُونَ﴾ أي إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك وافتراءهم، وقوله الباطل بلا علم ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعمما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت، إلا أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يُصِفُونَ﴾ عائد إلى الناس جميعهم، ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي مرسل.

﴿فَالْتَكُفُّ وَمَا تُعْبُدُونَ﴾ (١١١) مَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١١٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١١٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (١١٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِخُونَ (١١٦) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُوا (١١٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١١٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١١٩) فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٢٠)

ينول تعالى مخاطباً للمشركين ﴿فَالْتَكُفُّ وَمَا تُعْبُدُونَ﴾ (١١١) مَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١١٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ (١١٣) أي إنما ينقاد لمقاتلتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذرىء للنار ﴿هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئِدَةٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179] فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة. ثم قال تبارك وتعالى منزهاً للملائكة مما نسبوا إليه من الكفر بهم، والكذب عليهم أنهم بنات الله ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (١١٤) أي له موضع مخصوص في السموات، ومقامات العبادات لا يتجاوزها ولا يتعداه. روى ابن عساكر أن رسول الله ﷺ قال يوماً لجلسائه: «أطت السماء، وحق لها أن تفتح، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك رافع أو ساجد» ثم قرأ ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (١١٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (١١٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِخُونَ (١١٦) وفي الحديث «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم» رواه مسروق عن عائشة في هذه الآية، أو معناه تقدم الرجال وتؤخر النساء في صلاة الرجال ونساء جميعاً. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١١٥) أي نقف صفوفاً في الطاعة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِخُونَ﴾ (١١٦) نصطف فسيح الرب ونمجده، ونقدسه وتنزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُوا (١١٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١١٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١١٩)﴾ أي قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، ولهذا قال الله ﴿فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (١٢٠) وعيد أكيد، وتهديد شديد على كفرهم بربه عز وجل، وتكذيبهم رسوله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ أي تقدم في الكتاب الأول أن العقوبة للرسول وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: 21] ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ أي تكون لهم العقوبة والنصرة والظفر ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ أي انظرهم وارقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك، ولهذا قال تعالى على وجه التهديد ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

﴿أَفَعَدَّيْنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿أَفَعَدَّيْنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ أي هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويجعل لهم العقوبة، ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة. قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ أي فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم. وثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: صبح رسول الله ﷺ خبير، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر. خربت خبير، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» وقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

ينزه تبارك وتعالى نفسه الكريمة ويقدها ويرثها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون، وتنزه وتقدس عن قولهم علواً كبيراً. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أي العزة التي لا ترام ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفتريين ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقته ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال. روى الطبراني عن رسول الله ﷺ أنه قال «من قال دبر كل صلاة ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ ثلاث مرات فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر». وقد وردت أحاديث في كفاية المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.